

الفضل الأول

نشأة الحرب الإيديولوجية وتطورها

obeikandi.com

## نشأة الحرب الأيديولوجية وتطورها

يؤرخ لفيف من الكتاب للحرب النابليونية كبداية للحرب الأيديولوجية . بينما يربطها آخرون بمولد الدبلوماسية المفتوحة بنهاية الحرب العالمية الأولى ، في حين يرى لفيف ثالث أن الصراع الأيديولوجي الحقيقي لم يبدأ إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .

على أنه من المهم أن نتبين الظروف السياسية والاجتماعية التي في ظلها اكتسب الصراع الأيديولوجي أهميا في الماضي والتي ما زالت تعكس آثارها على الحاضر .

ويمكن أن نميز هنا بين ثلاثة مواقف :

أولاً – موقف الحرب : والمقصود بها الحرب العظمى التي يكتوى بنارها جانب كبير من شعوب العالم ( محاربة والمتحالفة والمحايدة ) .

ثانياً – موقف التمهيد للغزو : وهو الموقف التي يقتضى تكيف سلوك سكان دولة معينة قبل الإقدام على غزوها ، أو تمهيداً لهذا الغزو .

ثالثاً – موقف الثورة : ولا يقصد أى ثورة وإنما الثورة الناجحة التي تحدث في دولة معينة وتنتشر إلى الدول الأخرى نتيجة بعض الظروف الاجتماعية المواتية مما يجبر حكام الدول الأخرى على البحث عن طريقة لخنق الثورة أو حصارها ويدفع في الوقت نفسه الحكومة الثورية إلى محاولة التأثير في مؤخره العدو أو بمعنى آخر في جبهته الداخلية بنشر الأفكار الثورية .

ويعمل الموقنمان الأولان ( موقف الحرب والغزو ) النموذج المبكر لاستخدام الدعاية السياسية الخارجية وهو نموذج تعود أصوله التاريخية إلى الماضي السحيق ، ومن ذلك الدعوة إلى الوحدة الهلينية من جانب فيليب الثاني والإسكندر الأكبر

كبير خروبها التوسعية . واستخدام الدين في العصور الوسطى كسلاح في السياسة الخارجية ، وتعتبر الحروب الصليبية (ق ١١ - ١٢) التي قامت بها مجموعات من إمارات أوروبا الإقطاعية بمعاونة الكنيسة الكاثوليكية . أبرز مثال على ذلك .

فبالإضافة إلى إعطاء خلفية ايدولوجية للحروب فإن الحرب الأيدولوجية كانت تستخدم كتمهيد روحى لشعوب المناطق المراد غزوها توطئة لذلك الغزو ، كما كان يفعل المبشرون المسيحيون في أفريقيا مثلاً لتجنيد العملاء من بين السكان المحليين .

ويجب أن نذكر أن الاستعمار كان مصحوباً دائماً بمحاولة تحطيم الروابط الروحية القديمة لشعوب المستعمرات والقضاء على ميراثها الإيدولوجى والثقافى ، باعتبارهما المصادر الروحية الأصيلة للمقاومة .

وإذا كان الدين الإسلامى قد وقف قلعة صلبة في وجه قضاء الاستعمار نترنسى على الشخصية القومية الجزائرية فقد كان للمبشرين المسيحيين الغربيين على العكس من ذلك دوراً كبيراً في التمهيد لاستعباد شعوب المستعمرات وخاصة في أفريقيا السوداء في عهد الإمبريالية .

أما بالنسبة للموقف الثالث الذى اكتسب الصراع الأيدولوجى فى ظله أهمية كبرى - نقصد موقف الثورة - فما لا جدال فيه أن ثورات القرن الثامن عشر تعطى نموذجاً طيباً . فقد قامت تلك الثورات فى الوقت الذى نمت فيه نوع من الصلات بين دول العالم بحيث أصبح من شأن أى تغيير كبير فى إحدى الدول الكبرى أن يغير موازين القوى القائمة بما يتبع ذلك من نتائج بالنسبة للسياسة الخارجية الأمر الذى جعل أثر هذه الثورات يتجاوز حدود الوطن إلى المجتمع الدولى ، ذلك أن الثورة الناجحة التى تصنع نهاية للاستعباد فى بلدا لا بد وأن تهدد بالخطر السلطات الحاكمة فى البلدان الأخرى بتعجيلها إنضاج العملية الثورية فيها . وهذا يفسر وحدة قوى العالم القديم ضد الثورة ، تلك الوحدة التى كانت تتمثل عادة فى صورة حروب معادية للثورة أو أعمال يقصد بها القضاء على الأفكار الثورية .

ومن ناحية أخرى فإن الطبقة الجديدة التي تأتي إلى السلطة كنتيجة للثورة لا يسعها أن تغفل عن واجبها في نشر الأفكار الثورية في البلدان الأخرى حماية لمؤخرتها .

فسمى الثورة الفرنسية ، ودعوتها لتحرير شعوب أوروبا عن طريق الثورة ، الممثل في قرار الجمعية الوطنية في ١٩ نوفمبر ١٧٩٢ الخاص بمساعدة جميع الشعوب التي تنزح إلى خلع الطغاة إنما يمثل أساس الدعاية الثورية على المستوى العالمي ويفصح عن الرغبة في نشر مثل الحرية والديمقراطية وانتصارها في العالم كله .

ولم يكن روبسبير كاذباً مع نفسه عندما أعلن أن فرنسا تحارب لتحرير العالم

ومن الواضح أن الدعاية الثورية الدولية كانت مطلوبة لمصالح سياسية أساسية وحيوية بالنسبة لثورة تتمثل أساساً في الدفاع عنها ضد العدو الخارجي ، فالثورة الفرنسية قد استطاعت عن طريق صيغ حربها الدفاعية بصبغة ثورية أن تملأ نفوس الجماهير الفرنسية بالحماس الثوري وأن تقهر العدو العسكري الأكثر قوة ذلك أن كل فرد من أفراد الشعب آمن بأنه يخوض حرباً دفاعية عادلة وبالتالي حاربها بكل طاقته النفسية والعاطفية .

وليس من شك أن الطبيعة الثورية للحرب والسياسة الخارجية للثورة الفرنسية قد استطاعت أن تحدث فعلاً تأثيرها الكبير على شعوب الأعداء وبذلك نجحت في إضعاف قوى الدول المعادية .

وقد شهدت نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أول نموذج من نوعه للاستخدام المنظم والمخطط للأساليب الأيديولوجية في السياسة الخارجية ، وبالتالي تحويل الدعاية السياسية الخارجية إلى عنصر هام من عناصر نشاط الدولة .

ونقصد بذلك نابليون الذي كان مجدداً في الدعاية وبخاصة الدعاية الخارجية . فلقد كان نابليون أول من استخدم الصحافة كوسيلة للزعامة

السياسة والعسكرية بل إن مصر قد عرفت الصحافة أول ما عرفها على يديه<sup>(١)</sup>

ولقد علق السياسي الكبير ميرنخ على ذلك قائلاً : « إنه لشيء جديد في التاريخ أن يتجه أحد الحكام مباشرة إلى الجماهير ، وهو ما فعله نابليون وأفاد منه فائدة عظمى » .

ولاشك أن استخدام نابليون الواسع والمتكرر للوسائل الايديولوجية في الصراع لا يعود إلى مواهبه الخاصة بقدر رجوعه إلى الظروف الموضوعية التي جعلت من استخدام هذه الوسائل ضرورة .

فقد كانت مشكلة نابليون الأولى بعد توليه السلطة تيرير ودعم حكمه البلاد التي كانت خارجة من ثورة أسفطت الملكية ومبادئ الشرعية القديمة أمام مبدأ سيادة الأمة ، وفي ظل هذا الموقف كان من الضروري لنابليون أن يحصل على موافقة وتأييد الرأي العام . وللوصول إلى ذلك كان لا بد له من العمل بصورة مستمرة على ما اصطلح على تسميته اليوم « بإدارة الرأي العام » عن طريق أجهزة الأعلام .

أما مشكلة نابليون الثانية فكانت تتمثل في تحول الجيش من محترفين مستأجرين إلى جيش غفير مجند من أبناء الشعب . فمثل هذا الجيش لا بد له من دوافع غير دوافع السلب والنهب ذلك كان من الضروري للمحافظة على روحه المعنوية وقدراته القتالية من الاتجاء إلى إذكاء المشاعر الوطنية والقومية بين أفرادها .

ولما كان نابليون قد وصل إلى الحكم عقب ثورة عظمى فقد ساعده ظروفه على جنى الثمار الايديولوجية لتلك الثورة رغم تعارضها مع حقيقة أهدافه ونواياها .

فلقد استقر في أذهان الأمم الأخرى نتيجة لجهود رجال الثورة الأوائل أن فرنسا هي نموذج الحرية والإخاء والمساواة . وقد استطاع نابليون أن يدرك بذكاء أهمية هذه المثل العليا وقوتها وأن يستخدمها لتحقيق مصالحه الذاتية ضد أعدائه من

(١) إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية - القاهرة ١٩٤٥

الملوك المستبدين ، وكان هذا هو السبب في إقدامه على ترويج أعمال الكتاب الثوريين في البلدان الأخرى ؛ رغم تحريمها في فرنسا ذاتها ، وذلك لكي يموه على خططه لنهب الدول الأخرى تحت شعارات تحريرية مثل شعار تحرير العبيد . . . إلخ ، أى أنه كان يتمز كل فرصة للاستفادة ايدولوجيًا من الثورة التي خانها هو نفسه .

وقد حفزت حروب نابليون ملوك أوروبا لكي يدخلوا في صراع ضد الأفكار الثورية . وهكذا ولد الحلف المقدس الذي كان يستهدف على حد قولهم العمل ضد الأفكار المخادعة في البلدان الأخرى ؛ ولعل هذه كانت أول منظمة دولية تنشأ لمثل هذا السبب .

وإذا طبقنا الكلام السابق على عالمنا المعاصر لوجدنا تشابهاً كبيراً :

فاثورة البلشفية التي حاولت دول العالم الرأسمالي خنقها في مهدها قد استطاعت أن تغتلب من هذا الخناق بفضل نجاحها في تأجيج روح المقاومة بين جماهير شعوب روسيا ضد العدو الأجنبي الدخيل ، بل لقد استطاعت أن تنقل المعركة عن طريق نشر الأفكار الثورية إلى قلب العالم الرأسمالي نفسه .

وثورة ٢٣ يوليو في مصر حين مدت أفكارها عن الحرية والوحدة والاشتراكية إنما كانت في حقيقة الأمر تعمل أساساً على توسيع نطاق المقاومة الشعبية على الصعيد العربي كله ضد التدخل الاحتكاري العسكري الأجنبي ومؤامرات الرجعية . والاحتكارات الرأسمالية العالمية حين تعمل اليوم على نشر التراث الثقافي والروحي النابلي بين شعوب العالم الثالث . ذلك التراث الذي تنكرت هي نفسها له في بلادها إلى حد كبير ، إنما تكرر في عالمنا المعاصر لعبة نابليون الأيديولوجية .

الحرب العالمية الأولى ونشأة الدعاية السياسية الخارجية :

يؤرخ للحرب العالمية الأولى عادة كحجر الأساس في تشكيل الدعاية السياسية الخارجية ، فقد شهدت تلك الحروب لأول مرة في التاريخ ظهور

الوكالات الحكومية المتخصصة في الدعاية السياسية الأجنبية مثل وزارة الاستعلامات البريطانية برئاسة لورد بيفر بروك وإدارة دعاية الأعداء برئاسة لورد نورثكليف واللجنة الأمريكية للإعلام واللجنة الدولية للحلفاء التي كانت تشرف على تنسيق دعايتهم ، وإدارة الصحافة الحربية الألمانية التي كانت تتبع القيادة العامة الألمانية ووزير الخارجية ، هذه الإدارات الحكومية تمثل بله الشكل الحديث للاستخدام المنظم للدعاية السياسية الخارجية من جانب الحكومات كسلاح من أسلحة الدبلوماسية بجانب الأسلحة التقليدية الأخرى .

وليس من شك أن من أبرز العوامل التي أدت إلى دعم سلاح الدعاية السياسية الخارجية تحول الرأسمالية إلى الإمبريالية ما دعاها إلى مضاعفة الاهتمام بالتوجيه الروحي للشعب بحيث يصبح هذا السلاح أحد الأسلحة السياسية بجانب الضغط المادي المتمثل في الحروب الفعلية، يدل على ذلك الحجم الذي لم يسبق له نظير للدعاية المنظمة التي استعملت كوسائل لها : الصحافة ، والمدسة ، والكنيسة ، وغيرها من المؤسسات .

في هذه الحقبة تنكرت الرأسمالية للديمقراطية الليبرالية ودخلت في صراع لا هوادة فيه للسيطرة الكاملة على أسلوب الناس في التفكير أو على ما يسمى « بالرأي العام » حتى يمكنها توجيه هذا الرأي العام الوجهة التي لا تتعارض مع مصالحها الأساسية .

وتبعاً لذلك وضعت أسس النظرية الإمبريالية في الدعاية أو علم إدارة الناس الذي وصل إلى قمة نموه وتطوره في عصرنا الحديث على أيدي علماء النفس والاجتماع<sup>(١)</sup>

ومن نافذة القول التنبيه إلى أن أحد الأهداف الرئيسية لهذا النشاط الدعائي هو خلعمة السياسة الخارجية العدوانية . فالاستعمار يرتبط كما نعلم ارتباطاً وثيقاً بالحروب ، أي بالصراع من أجل تقسيم العالم وإعادة تقسيمه وهكذا .. إلى آخر هذه الدائرة الخبيثة .

(١) مختار التهامي : للرأي العام والحرب النفسية - الجزء الأول - دار المعارف

ومن الأمور الطبيعية أن تسعى الدولة الاستعمارية لتهيئة المقومات الأيديولوجية اللازمة لتبرير سياستها ، وينعكس ذلك بصورة واضحة على الدعاية الداخلية التي تدافع عن مبدأ السياسة العدوانية الخارجية والتي تسعى إلى بذور بذور الحقد وعدم الثقة بين الشعوب ، والتي تبرر الحرب والتوسع وتدعو إلى سيادة الروح العسكرية .

ولا شك أن الحرب العالمية الأولى كانت حافزاً للإمراع في هذه العمليات كما أنها خلقت الظروف التي أصبح من الممكن معها أن تتحول الخطط الاستعمارية التي رسمت في وقت السلام إلى واقع ملموس .

ولقد أثبت الصراع العسكري الأهمية الكبرى لكسب تأييد الشعوب للسياسة الاستعمارية . وفي شرح هذا يقول « جون مارتن » عن الحرب العالمية الأولى : « لقد اكتشف عندئذ أن الحرب الشاملة لا يمكن خوضها إلا بالمجموع على عقول البشر وأجسادهم في الوقت نفسه (١) » .

ويختلف رجال الدعاية في تقدير مدى تأثير الدعاية التي استخدمت على نطاق واسع ضد القوات المسلحة والشعوب الأخرى خلال الحرب العالمية الأولى ، فيرى بعضهم أن القول بأن الدعاية البريطانية هي التي كسبت الحرب ضد ألمانيا قول أوحى به العسكريون الألمان أنفسهم لادعاء أن الجيش الألماني لم يقهر في المعركة إنما خانه حلفاؤه وهجره ، وأن هذا بالإضافة إلى الدعاية كان سبب الهزيمة .

ولقد حدث بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أن حلت جميع أجهزة الدعاية التي خدمت تلك الحروب ، وخيل للناظرين أن كل شيء قد عاد إلى أساليبه القديمة ، ولكن هذا لم يستمر سوى لفترة قصيرة من الزمن . فالحقيقة أن حرب الأفكار في العلاقات الدولية استمرت - بل تضاعفت - على جبهات عديدة تبرز في مقدمتها جبهة الصراع بين الاشتراكية والإمبريالية بعد ظهور الدولة الاشتراكية الأولى ، والصراع بين الدول الإمبريالية نفسها . وأخيراً الصراع بين الاستعمار وشعوب المستعمرات .

ومع تطور أجهزة الاتصال الحديثة . أخذت إدارات الدعاية السياسية الحكومية طريقها مرة أخرى لظهور حتى في زمن السلم . ففي عام ١٩٢٧ بدأت الأراضي الوطنية توجه إذاعت على الموجة القصيرة لمستعمراتها ، وتبعها فرنسا عام ١٩٣١ والإذاعة البريطانية إلى ما وراء البحار عام ١٩٢٢ ، وألمانيا النازية عام ١٩٣٣ وإيطاليا الفاشية عام ١٩٣٥ والولايات المتحدة عام ١٩٣٩ .

ولابد من التنبيه إلى أن النازية قد أقامت جهازاً للدعاية الشاملة لم يسبق له نظير في تاريخ العالم من قبل قدرت نفقاته بما يزيد على ٥٠٠ مليون دولار<sup>(١)</sup>

### الدعاية خلال الحرب العالمية الثانية :

وبقيام الحرب العالمية الثانية ازدهرت إدارات الدعاية السياسية الأجنبية في بلدان كثيرة . ففي بريطانيا أنشئت وزارة للإعلام ولجنة للدعاية السيكلوجية ، وفي الولايات المتحدة تأسست إدارة الاستعلامات الخارجية ومكتب الاستعلامات الخري الأمريكي كما استخدمت القيادات العسكرية الدعاية على نطاق واسع في ميادين القتال نفسها وبين شعوب الأراضي المحتلة .

ولاشك أن سنوات الحرب العالمية الثانية قد شهدت نمواً وتضخماً في الدعاية بشكلها الحديث وتطوراً بعيد المدى في نظرية الدعاية وتكتيكاتها وأساليبها ووسائلها ظهرت آثاره بصورة أكبر في الحرب الباردة التي أعقبها .

### اشتعال الحرب الأيديولوجية بانتهاء الحرب العالمية الثانية :

وعلى خلاف ما حدث بعد الحرب العالمية الأولى ، فإن أجهزة الدعاية التابعة للدول المنتصرة لم تتوقف إلا لفترة قصيرة جداً ، لا من أجل حلها بل لإعادة تنظيمها . فبعد عامين أو ثلاثة من انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي . وكان سلاحها الأول هو الدعاية

(١) Harrison, J. B. & Others : (edited.by) : "If men Want Peace" New York

السياسية الخارجية . وهكذا انتقلت الدعاية السياسية الخارجية من كونها نشاطاً مصاحباً للحروب وحالات الطوارئ إلى نشاط قانوني له صفة الدوام والاستمرار .  
 ولقد وصل الصراع الإيديولوجي الآن إلى درجة وحجم في العمليات السياسية الخارجية للدولة المعاصرة أدت إلى تغيير نوعي خطير في العلاقات الدولية يطلق عليه البعض اصطلاح « مذهبه » هذه العلاقات<sup>(١)</sup> .

وقد أشار إلى ذلك مؤلفو كتاب « غزاة الأفكار » حيث يقارن :  
 « إن العلاقات الدولية قد تغيرت تغيراً جذرياً خلال الأربعين عاماً الماضية فاق كل تغير حدث خلال القرون السابقة ، فلأول مرة في تاريخ العالم لا توجد الآن حكومة واحدة تستطيع أن تستغنى عن عملية التحريض الجماهيرية<sup>(٢)</sup> .  
 ويتردد مثل هذا القول حتى في التقارير الرسمية ، فقد جاء في التقرير الذي قدمته لجنة مانسفيلد الخاصة بالنشاط الإعلامي الخارجي إلى الرئيس الأمريكي إيزنهاور ما يلي : أننا الآن في فترة تغير فيها الدبلوماسية سياستها وأساليبها فن المعترف به اليوم أنه ما لم تستطع الحكومات أن توصل بصورة فعالة وبثقة مبررات سياستها وأعمالها إلى جميع العناصر المؤثرة سياسياً في الشعوب الأجنبية فإن من الممكن أن تتعطل برامجها ويتعرض أمنها للخطر<sup>(٣)</sup> .

وفي المعنى نفسه تكلم « وليام بنتون » الوكيل السابق المساعد للخارجية الأمريكية عن المرحلة الجديدة لتطور العلاقات الدبلوماسية فقال : « كانت القوة . والقوة العسكرية دائماً تقع في خلفية معظم المباحثات في الدبلوماسية القديمة . وكثيراً ما كانت تقرب جداً من السطح ، أما في السنوات الأخيرة فقد أخذت الاعتبارات الاقتصادية تلعب دوراً متزايداً ، أما اليوم فإن دبلوماسية الرأي العام هي التي تلعب الدور المسيطر وهذا أمر ظاهر ملموس للعيان » .

ويواصل « بنتون » حديثه عن هذا النوع الجديد من العلاقات الدولية الذي

( ١ ) أي صيغها بمنايع مذهبي أو فكري .

( ٢ ) Gordon, G. N., Falk, I. Hodapp, W. : "The Idea Invaders" ( ٢ )

New York, 1963-p. 187.

The Dept. Of State Bulletin, Feb. 6, 1961- P. 185-86.

أعطى مولداً للدبلوماسية جديدة شاملة هدفها الأول كسب عقول الناس وولائهم فيقول : « وهذه الدبلوماسية كى تكون شاملة يجب أن تستوعب أساساً الجهود السيكلوجية التى تستهدف شعوباً بأكملها والوسائل العلمية اللازمة لحوض هذه الدبلوماسية السيكلوجية » (١) .

وهكذا ترقى العمليات السيكلوجية اليوم إلى مستوى الدبلوماسية التلاميذية بأجهزتها العسكرية والاقتصادية .

ويفسر تقرير لجنة مانسفيلد السابق الإشارة إليه سبب هذا التطور فيقول : « إن هذه التغيرات إنما تعكس التطور التكنولوجى لأساليب المواصلات والاتصال والدور المتزايد للرأى العام فى الشؤون العالمية » ويستطرد قائلاً : « إن التزايد المطرد فى قوة الرأى العام ظاهرة واضحة فى جميع أنحاء العالم وهذه القوة المتزايدة يفسرها ازدياد التعليم وإدخال أدوات اتصال جديدة واسعة النطاق وانتشار الأفكار الديمقراطية » .

وبعد هذا العرض لنشأة الدعاية الإيديولوجية وتطورات استخدامها فى مجال الدبلوماسية الدولية الحديثة كلاح فى التأثير على الرأى العام فننتقل فى الفصول التالية إلى دراسة للأسس الفلسفية التى تقوم عليها كل من الدعاية الأمريكية والسوفيتية حيث تتماثل قمة الصراع بين النظامين الاجتماعيين المعاصرين كما نهض أيضاً - استكمالاً للبحث - للدعاية فى الصراع السوفيتى - الصينى ، ولأسس الدعاية الصهيونية الإسرائيلية ، ثم نتهى بفصل ختامى عن موقف المدرسة الاشتراكية العربية من الصراع الدعائى الإيديولوجى الأساسى الذى يشهده عالمنا المعاصر .